تقديم بقلم:

الأستاذ الدكتور/ غيثان بن علي بن جريس

أستاذ التاريخ/ بجامعة الملك خالد

السعودية - أبها

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

فإن شبه الجزيرة العربية، ما عدا منطقة الحجاز، بقيت في عزلة علمية وفكرية منذ خروج الخلافة الراشدة من المدينة المنورة في عهد الخليفة الراشد، علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، وذلك عندما بدأت القوى الغربية ترسل من يدرس أحوال هذه البلاد التي ظهر منها وفيها الإسلام، وكانت أهداف هذه الدول سياسية بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى أهداف ثانوية أخرى. والشيء الجميل أنه قدم إلى البلاد العربية، بما فيها جزيرة العربية عدد من العلماء والرحالة الذين دونوا لنا معلومات ودراسات قيمة عن هذه البلدان أثناء ترحالهم وتجوالهم في جنباتها.(١)

والكتاب الذي بين أيدينا، والموسوم: بـ **مرتفعات الجزيرة العربية**. لهاري سانت جون فيلبي، أو (عبد الله فيلبي) كما عرف في المنطقة العربية، يعد واحداً من نتاج أولئك الرحالة الغربيين الذين قدموا إلى بلاد العرب خلال القرون الثلاثة الماضية. ولكن فيلبي يختلف نوعاً ما عن بقية الرحالة الغربيين الآخرين، وذلك لأمور عديدة منها:

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن بعض الرحالة الذين قدموا إلى جزيرة العرب انظر: جاكلين بيرين. **اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة والعلم**. ترجمة: قدري قلعجي (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت) ص ٥ وما بعدها، محمد محمود الصياد. (الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر الميلادي) د **دراسات تاريخ الجزيرة العربية (الكتاب الأول). مصادر تاريخ الجزيرة العربية** (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م) جـ ٢، ص ٤٣٧ -٤٤٤.

أولاً: لا نستطيع الإنكار بأنه كان مدعوماً من حكومته، بريطانيا، لدراسة أحوال بلاد العرب، وبخاصة الجزيرة العربية، وقد اعترف نفسه بذلك في مواضع عديدة من مؤلفاته، لكن وضعه كان أحسن من غيره لظهوره في عصر الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي كان يرغب في الحصول على أمثال فيلبي كي يقوموا له بالعديد من المهمات السياسية والعلمية معاً. وشاء الله تعالى أن يلتقي فيلبي بالملك عبد العزيز في عام (١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م). ثم تستمر علاقته بالملك عبد العزيز حوالي أربعين سنة، أخرج خلالها العديد من الكتب والدراسات العلمية الرصينة عن جزيرة العرب، ومن يتفحص معظم دراسات فيلبي فإنه يجد مادة علمية غزيرة عن جزيرة العرب وبخاصة خلال العقود الوسطى من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، ولا نبالغ إذا قلنا أن مؤلفاته تعد مصادر رئيسة وأساسية لا غنى عنها لأي باحث أو دارس للجزيرة العربية أثناء عهد الملك عبد العزيز. وقد سبقني إلى هذا القول بعض الباحثين، فالشيخ حمد الجاسر، يقول: «**الحقيقة التي يجب أن تقال هي أن فيلبي أسدى للجزيرة العربية يداً قصر عن مدها إليها من سواه**» (١)، أيضاً ذكر جورج رنتز (George Rentz) في حديثه عن فيلبي، فقال «**إنه أكثر الغربيين إنتاجاً عن تاريخ هذه البلاد**» (٢)، ويقصد بالبلاد، المملكة العربية السعودية والحقيقة أن معظم دراسات فيلبي تتسم بصدق المعلومة إلى حد كبير، وتنوعها، وعمق تحليلها ورصانتها.

ثانياً: الدعم غير المحدود والذي وجده فيلبي من الملك عبد العزيز ونلمس ذلك في هذا الكتاب الذي بين أيدينا وفي كتب أخرى عديدة، فكان الملك عبد العزيز يعمل جاهداً على تسهيل جميع مهمات فيلبي المالية والأمنية والاجتماعية، بل يحث رجال حكومته على توفير جميع مطالبه، ودعمه بكل ما يستطيعون.

---

(١) حمد الجاسر. (فيلبي: رحلاته في البلد العربية) **مجلة العرب** (١٤٠٩ / ١٤١٠هـ) مج (٤)، ص ١٠٥ وما بعدها.

(٢) جورج رنتز. (فيلبي مؤرخاً للمملكة العربية السعودية) ٩ ترجمة وتعليق حسين محمد الغامدي. **مجلة الدرعية**، (السنة الأولى) عدد (٢) ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، ص ٦١.

ثالثاً: معظم دراسات فيلبي قائمة على الرحلات والتجوال في نواحي الجزيرة العربية، وهذا بدون شك، أمر صعب جداً، لما يقابل من عقبات جغرافية، وسياسية، وأمنية، واقتصادية، واجتماعية. ولكن فيلبي تجاوز كل هذه العقبات بسبب حماية الملك عبد العزيز له ودعمه الكبير [١]، ثم صبر فيلبي وعزيمته، وكذلك سعة معارفه وثقافته وإتقانه اللغة العربية، بالإضافة إلى دبلوماسيته سواء مع الملك عبد العزيز ورجال دولته، أو مع عامة الناس، كل هذه الأمور مجتمعة جعلته ينجح في معظم رحلاته، وبالتالي ترك لنا كنزاً معرفياً كبيراً أمثال هذا السفر الضخم الذي بين أيدينا وغيره [٢].

رابعاً: اعتناق فيلبي للإسلام، ربما كان رافداً جيداً آخر لنجاح مهماته العلمية، وثقة الناس به أثناء تجواله في أنحاء الجزيرة العربية، وتعمقه في معرفة أعراف وعادات وثقافات الناس. وقد لمسنا ذلك في معظم دراساته حيث وجدناه قد صار خبيراً بأحوال الناس، وقيمهم، ولهجاتهم مع استخدام أسلوب المقارنة والتحليل.

أما الكتاب الذي نحن بصدده: **مرتفعات الجزيرة العربية (Arabian High-lands)** فطبع لأول مرة بلغته الرئيسة (الإنجليزية) عام (١٩٥٢ م) وكانت حقوق النشر محفوظة لجمعية الشرق الأوسط بواشنطن، التي تولت طباعته ونشره، ثم أعيد النشر مرة ثانية في عام (١٩٧٦ م)، وهي النسخة التي تم الاعتماد عليها في الترجمة إلى العربية. والكتاب يقع في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط.

---

(١) نلمس دعم الملك عبد العزيز لفيلبي في معظم رحلاته، بل صرح فيلبي بذلك في مواطن عديدة من دراساته، وأحياناً يظهر إعجابه بهذا القائد العربي (الملك عبد العزيز)، كما تنبأ بمستقبل تنموي زاهر لهذه البلاد (المملكة العربية السعودية).

(٢) لمزيد من الاطلاع على أسماء بعض كتب ودراسات فيلبي، انظر: غيثان بن علي بن جريس. **صفحات من تاريخ عسير**. (الرياض: مطابع العبيكان ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) الجزءان الأول والثاني، ص ٢٨٩ - ٢٩٢، وللمزيد انظر أيضاً:

Elizabeth Monroe . **Philby of Arabia** (London , 1973) pp . 38 ff .

وهذه الدراسة عبارة عن رحلة طويلة استغرقت حوالي تسعة شهور، بدأها من وادي الدواسر متجهاً نحو بيشة ورنية والخرمة حتى الطائف ثم مكة المكرمة، بعدها خرج مرة ثانية من أرض الحجاز إلى الخرمة ورنية ثم خميس مشيط وأبها. كما واصل رحلته إلى شرق بلاد قحطان ماراً ببلاد طريب، والعرين، وتثليث، ثم خرج إلى منطقة نجران، ثم اقتطع من وقت رحلته حوالي (٨٠) يوماً خرج فيها إلى حضرموت ونواحي عديدة من بلاد اليمن[١]. وبعدها عاد إلى نجران فتجول في مواطن عديدة منها ووقف على كثير من الحدود بين السعودية واليمن، ثم خرج إلى ظهران الجنوب ببلاد قحطان، ومنها نزل مع عقبة شراقب في ظهران الجنوب إلى بلاد الحقو وبيش وصبيا وبني مالك وفيفا في منطقة جازان، وشاهد أيضاً كثيراً من النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، ثم توجه إلى مدينة جازان وأبي عريش وأحد المسارحة وسامطة، وواصل سيره لرسم بعض النقاط الحدودية في النواحي الساحلية السهلية. وأخيراً عاد أدراجه من بلاد جازان سائراً على الساحل ماراً ببلاد صبيا، وبيش، والدرب ثم الشقيق، والقحمة، وهكذا واصل سيره نحو مكة المكرمة فاجتاز البرك والقنفذة والليث حتى جدة ثم واصل سيره حتى دخل مكة المكرمة.

ومن خلال مراجعتي وقراءتي لهذا الكتاب خرجت بالعديد من الانطباعات التي أذكر منها:

١- أن هذا الكتاب غطى منطقة واسعة جداً تقدر بحوالي (١٥٠٠٠٠) ميل مربع، كما ذكر فيلبي نفسه، حيث شملت البلاد الممتدة من الدواسر شرقاً إلى مكة المكرمة غرباً، ثم إلى الأطراف الجنوبية لبلاد نجران وجازان جنوباً، ثم الشريط الساحلي الممتد من جازان إلى جدة، وهذه في اعتقادي مساحة تقدر بتسع مساحة

(١) وفي هذا الوقت المقتطع الذي خرج فيه إلى بلاد اليمن دوّن فيه كتاباً مستقلاً سماه: **بنات سبأ**، وقد قامت مكتبة العبيكان مشكورة بترجمته ونشره عام (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م).

المملكة العربيـة السعودية[١]. وإذا قللنا من أهميـة المساحة الجـغرافية التي قطعـها فيلبي، فإنه لا يمكن أن نتجاهل ما يوجد على هذه المساحة من تباينات واختلافات في التـضاريس الجـغرافـية، والأحـوال المناخيـة، والعناصـر البشـرية، والنواحي الحضارية الأخرى سواء كـانت اجتماعية، أو اقتصادية، أو فكـرية ودينية وثقافية. وهذا يؤكد على صعوبة المهمة التي قام بها هذا الرحالة.

٢- من ينظر في الكتاب ويدرسه يلاحظ الجهـد الضخم الذي بذله فيلبي، فهو لم يركز على ناحية علمية معـينة، وإنما كان شديد الملاحظة، فإذا نزل منطقة معينة فهو يتحدث عن قضايا عديدة تشمل الملامح التاريخية والجغرافية لتلك البلاد، كما أنه يذكر الأخبـار والقضايا المعاصرة التي شـاهدها، وبالتالي فهو يدون كـثيراً من المعلومات الحـضارية المتنوعة التي يصـعب أن تجدها في مرجع آخـر. ومن خلال تجوالنا في البـلاد التي زار ومقـارنة أقواله وشروحـاته بما شاهدنا وسمـعنا تبين لنا شدة ملاحظته، ودقة معلوماته ومصداقيته في تدوين كثير من الأخبار والروايات.

٣- من يطالع هذه المساحـة الشاسعـة التي زارها فيلبي في هذا الكتـاب، فإنه يتضح أن هناك منـاطق عديدة لم يزرها رجل أوربى من قبل، بل لـم يكتب عنها أحد من الأوربيين أو العرب على الإطلاق. وأخص بذلك بعض أجزاء من مناطق قحطان مثل: طريب، والعـرين، وأجزاء من وادي تثليث، وبلاد ظهران الجنوب، وعقبة شراقب الواصلة بين ظهران ووادي بيش في منطقة جازان، وبلاد بني مالك وفـيفـاء، وأجزاء من وادي حـبونا في نجـران، ومناطق حـدودية بين السعـودية واليمن، وغيرها مناطق عديدة. وان ذكرت بعض هذه المناطق في مصادر ومراجع أخرى، فذكرها كان مـختصراً جداً يختلف عن الكيفيـة والتفصيلات التي أوردها فيلبي في هذا الـكتاب الكبيـر. ولا أجانب الحقـيقة لو قلت إن هذا الكتـاب يُعد

(١) مساحة المملكة العربية السعودية تقدر بـ (٢٢٥٠٠٠٠) كم٢ تقريباً، فهي تستأثر بنحو ٨٠ ٪ من مساحة شبه الجزيرة العربية.

أشمل وأفضل دراسة تكلمت عن الأجزاء الجنوبية للبلاد السعودية، وحتى هذه اللحظة لم يظهر دراسة أدق وأشمل منه.

٤- مما يظهر في صفحات كثيرة من الكتاب، أن من أهدافه رسم النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، وهذا مما شجع الملك عبد العزيز على دعم فيلبي وتشجيعه، بل قدم له بعض الأراء والنصائح التي يتبعها أثناء ذهابه إلى تلك المناطق الحدودية. وقد عمل فيلبي كل ما في وسعه على رسم أغلب الحدود الممتدة من ساحل البحر الأحمر غرباً إلى أطراف الجبال الشرقية في نجران وبلاد قحطان، ولكن من يقارن أقوال فيلبي مع ما ورد في بعض الوثائق والمراجع الأخرى يجد بعض الاختلافات في تسمية بعض المواطن، وكذلك القرى والقبائل والعشائر التي تعيش على جانبي بعض النقاط الحدودية. وقد صححنا كثير من تلك الأسماء، وبخاصة أثناء زيارتنا لعدد من المناطق في شهري المحرم وصفر عام (١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م).

ونجد فيلبي يتفرَّد على غيره، ممن كتبوا عن النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، فهو لم يقتصر على ذكر مواقع تلك النقاط ومسمياتها وإنما ذكر كثيراً من المعلومات عن طبيعة السكان الذين يعيشون حول تلك الحدود سواء كانوا من السعودية أو اليمن، فذكر أسماء قبائلهم وعشائرهم، وأشار إلى بعض أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية والفكرية، بل ذكر أحياناً نوعية ملابسهم وأطعمتهم، ومساكنهم، بالإضافة إلى أنه كثيراً ما يذكر بعض التفصيلات عن حياتهم الاقتصادية وبخاصة التجارية مثل الأسواق الأسبوعية التي كانوا يرتادونها، وأنواع السلع والأسعار والعملات التي كان يتم التعامل بها في تلك الأسواق، وأحياناً يذكر الطرق التجارية التي تربط بين بعض النواحي الداخلية والخارجية في تلك الجهات.

٥- أن السائد على معظم الكتاب التنوع في مادته العلمية، إلا أن هناك جوانب عديدة تفرَّد بها فيلبي في دراستها عن غيره، مثل: ذكر أنواع الطيور والنباتات التي كان يشاهدها في أغلب المناطق التي زارها، كما أنه كان حريصاً على دراسة

النقوش والرسوم والآثار التي تقع عينه عليها، بالإضافة إلى أنه كان يشير إلى الأعيان والشخصيات البارزة في كل بلدة يزورها، كما أنه لم ينس ذكر حالة الفقراء والبؤساء الذين كان يشاهدهم من وقت لآخر، كما نوه إلى وجود بعض الأساطير والخرافات التي كانت سائدة في البلاد. والحقيقة أن هذا الكتاب جدير بالدراسة والتأمل إلى كل ما ورد فيه من معلومات قيمة، وبخاصة أنه يعالج تاريخ وحضارة بلاد طواها النسيان والفقر العلمي لقرون طويلة.

أما طريقنا في مراجعة هذه الدراسة فقد ارتكزت على تصحيح أسماء الأعلام (سواء كانت مكانية، أو زمانية، أو إنسانية أو حيوانية) وهي كثيرة جداً، وقد اعتمدنا في التصحيح على عدة أمور مثل:

أ ـ زيارة أغلب المناطق التي جاءها فيلبي، والالتقاء بأعيان ومتعلمي تلك النواحي، ثم السماع منهم حول ما أورد هذا الرحالة عن بلادهم وتصحيح ما وقع فيه من أخطاء.

ب ـ الرجوع إلى أكثر من مائة مصدر ومرجع لمقارنة بعض ما ذكر فيلبي في كثير من القضايا، أو للقراءة والاستزادة من هذه المصادر والمراجع التي تعرضت لبعض الجوانب العلمية الخاصة بهذه البلاد المطروحة في هذه الدراسة. وطريقة رجوعنا إلى هذه المصادر والمراجع ثم توثيقها، هو تدوين المصدر أو المرجع بمعلومات كاملة عند أول مرة يرد معنا وفي حالة تكراره نذكره باختصار.

وفي الختام فإنني اشكر القائمين على مكتبة العبيكان الذين وثقوا في فمنحوني مراجعة هذا الكتاب القيم الذي استفدت منه كثيراً، ولا أجامل أحداً وإنما أقول كلمة الحق، فهو من أفضل الكتب التي رجعت إليها على مدار ثلاثين عاماً عن هذه البلاد (جنوبي البلاد السعودية) من حيث شموليته ودقة معلوماته إلى حد ما. والله أسأل أن يجزي من قام على ترجمته ثم طباعته ونشره خير الجزاء، وأن يجعل أعمالنا وأعمالهم خالصة لوجهه الكريم، كما أسأله السداد والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبها ١٤٢٥/١٢/٢٧هـ
٢٠٠٥/ ٢/ ٧م

تصدير

لقد انقضت فترتان بالتتابع، أولاهما قبل (٢٠) عاماً وأخراهما قبل (١٥) عاماً منذ القيام بهاتين الرحلتين، واللتين تم جمع أجزائهما في هذه الصفحات، لتضع أمام العالم أولى الصور بالقياس الطبيعي للمساحة الضخمة التي تكوِّن النصف الجنوبي الغربي للمملكة السعودية، غير أن العالم كان مشغولاً بالحروب وإشاعات الحروب، مما أدى إلى تأخير طبع الكتاب لمدة سبع سنوات منذ اكتمال كتابته، ذلك لأن العالم لم يكن يشغل نفسه بهذه الأمور المحببة للغير وغير المربحة مثل جغرافيا الجزيرة العربية واجتماعيتها وتاريخها وآثارها. كان اتجاه العالم، كما في العديد من الحقول الإنسانية، هو أن يترك أمر المبادرة في هذه المجالات لأمريكا. ولم تكن أمريكا، لحسن حظ العالم، غائبة عن الصورة.

لقد احتضنت أمريكا الجزيرة العربية بصفة خاصة، وقد استجاب العرب لاهتمامها وتعاطفها معهم مما نتج عنه تغيرات في التركيبة الاجتماعية في بلادهم يترك الحكم النهائي فيها للتاريخ. لا يشك أحد في ما اكتسبته أمريكا مالياً واقتصادياً من علاقتها مع الجزيرة العربية التي امتدت إلى عشرين سنة، غير أن المكتسبات قد شارك فيها العرب أيضاً. وسيكون من عديم الجدوى أن يحاول المرء تقويم العائد الروحي أو الفكري الذي حققته للبلاد التي استمدت منها إضافة عظيمة لمصادرها الضخمة الخاصة.

أود أن أشير إلى شخصين أمريكيين لأجل إطراء خاص، وهما من جيل الشباب، جورج رنتز وبيلي ويندر، لإسهاماتهم التي لا تقدر بثمن، برغم أنها لم تنشر بعد، لتوضيح المراحل الأولى في تاريخ جزيرة العرب الوهابية. لا تحتاج

الجهود الخاصة بالمسوح الطبوغرافية والجيولوجية فوق مساحات شاسعة في شرق ووسط الجزيرة العربية بواسطة خبراء أرامكو للإطراء، من جانب شخص تفوقت أعمالهم فوق هذه الأراضي على أعماله المبكرة. ابدى العديد من الامريكان الآخرين، بصفة عامة، في مجالات الحياة المختلفة، في زياراتهم للمشاهد العربية، اتجاهاً حيوياً لتشجيع وتعزيز الدراسة للبلاد وكل ما يتعلق بها، إما بالاهتمام الشخصي لتفاصيل العديد من الأمور، أو بمساعدة الزوار ذوي الاهتمام القادمين عبر الأطلسي لرؤية أو امتلاك المعلومة عن مظاهر الحياة المختلفة في الجزيرة العربية التي تحظى باهتمامهم.

يكفي هذا الحديث عن الأمريكان في هذا الموضع. ويبدو أن الاهتمام بشؤون الجزيرة العربية، هناك في أمريكا قد حوفظ عليه على وتيرة أعلى مما في انجلترا، مثلاً: ويقال هذا دون إساءة لأحد، تقوم مؤسسات جديرة بالقبول مثل تشاثم هاوس (Chatham House) والجمعية الملكية لوسط آسيا (Royel Central Asian Society)، التي تنحو نحو تسفيه أنفسها بمحاولة النذر القليل بتقديمها خلفية اعتذارية مؤدبة للسياسة الرسمية البريطانية، مهما كانت، وتحت أية ظرف من الظروف. أما في أمريكا، فإن ما قامت به المؤسسة الخيرية لدراسة الإنسان (Found ation for the study of man)، والذي جاء نتيجة لأنشطتها يذهب في الاتجاه المعاكس في بحثها على استقلاليتها وإثاريتها. يقابل مثل هذه العوامل ما يعوضها في أمريكا، وذلك بوجود مؤسسات عديدة ذات طراز موضوعي هدفها الرئيس هو جمع وتوزيع المعرفة الحقيقية عن العالم وقاطنيه، دون محاباة لأي نوع من النظم السياسية.

ينطبق هذا بالتأكيد على المؤسسة التي اكتسبت عرفاني بالجميل وتستحق أن تنال اعتراف العالم بجميلها لقيامها بطبع هذا العمل. يعد «معهد الشرق الأوسط»، الذي أنشئ في واشنطن العاصمة عام ١٩٤٦م، إضافة حديثة للجمعيات العلمية في العالم، بالهدف المحبوب «تطوير الاهتمام الواسع بشؤون الشرق الأوسط لدى الشعب الأمريكي، عن طريق نشر معلومات صحيحة عن المنطقة». لهذا الهدف، فإن المؤسسة، برئاسة جورج كامب كيسر، رئيس مجلس المديرين والسيد هارفي. بي. هال. بصفته مديراً للمطبوعات، قد أصدرت منذ عام ١٩٤٧م «مجلة الشرق الأوسط»، وهي مجلة فصلية تصدر أربع مرات في العام، إلى جانب إصدار «الرسالة الإخبارية» شهرياً. تقوم المؤسسة إلى جانب ذلك بتنظيم مؤتمرات سنوية لمناقشة شؤون الشرق الأوسط إلى جانب تنظيم محاضرات دورية في واشنطن وتقديم الدعم المالي والإشراف لطلاب مختارين. يمكن القول بأن ا«لمجلة» قد حققت شهرة عالمية لدراستها الموضوعية للشرق الأوسط ومشاكله، ولعل نجاحها في هذا الحقل هو الذي أدى إلى التطور السريع للمؤسسة: والذي أعنيه هو قرارها أن تتقدم بنشر الكتب الخاصة بالشرق الأوسط.

يتحدث اختيار المؤسسة لهذا العمل كتجربة أولى لها في حقل النشر أكثر مما يتحدث عن شجاعتها قبل أهلية الكتب لذلك، الذي لا يقدر مؤلفه عن فعل شيء إلا الإقرار بالعرفان بالجميل بقبولها لعمله والانغماس فيه. ولديّ أكثر من سبب لأكون أكثر من معترف بالجميل للعطف والمساعدة التي لا تنضب والتي احاطني بها المستر هارفي. بي. هال. الذي أدى دور «الصديق الموثوق» تجاه مؤلف ليس له به سابق معرفة، وتفصله عنه مسافة (٦٠٠٠) ميل من البحر واليابسة، وذلك لأنني ومنذ أن قمت بتسليم المسودة لم يكن لي دخل بعد ذلك بعمليات الطبع غير

قراءة واحدة لمسودات تجارب الطباعة. ويمتد إعجابي أيضاً إلى السيدة جين لندي للساعات العديدة المرهقة التي بذلتها في إعداد الفهرس. وأرفع إلى مطبعة جامعة كورنول شكري العميق لهذا العمل المحبوب الذي أنجز في وقت قصير مذهل. كما أدين بالشكر العميق والعرفان بالجميل إلى السيد قاري أون والسيد توم بارقر من شركة أرامكو للمساعدة الكريمة التي قدماها بتوفير النقل الجوي لمسودات الكتاب من وإلى أمريكا ورسائل أخرى ذات علاقة بهذا العمل، كما أشكر مستر جورج رنتز لنقل المسوَّدة في المقام الأول إلى واشنطن. كما لا يجب عليَّ أن أنسى أنه ربما لم تكن هنالك مسودة أصلاً يقوم بإرسالها لولا العمل المخلص النابع من الحب الذي قامت به ابنتي باترشيا ـ اسمها الآن مابلين ـ، التي طبعت نسخاً عديدة من مسودتي خلال تلك الأيام التي كان من الممكن فيها أن تزيل قنبلة ما كتبته بيدي.

وفي الختام، كلمة حول الجزيرة العربية، خلال السنوات السبع التي انقضت بعد كتابة المقدمة لهذا العمل، استيقظت الجزيرة العربية، لتجد نفسها، حقيقة، في عالم جديد، مختلف تماماً عما عهدته الأجيال الجائعة في الماضي. لقد وصلت أخيراً لعنه الأرملة، التي لمستها بعصاتها السحرية أخيراً، فانبثق نفطها الغالي إلى العالم في نهر لا ينضب بمعدل (١٠٠,٠٠٠) طن في اليوم. وتجلب السفن العائدة إلى بواباتها بضائع العديد من القارات: رفاهيات إلى جانب ضروريات، وفوق كل ذلك وسائل إزالة الظمأ في صحاريها التي بدأت تزهر وتنتج الثمار. وتحولت بلدانها إلى مدن وقراها إلى بلدان. لقد خففت وسائل المتعة الجديدة من قسوة الطقس أو مهدّت للهروب منه. تحول اليأس إلى أمل. غير أن موجات الرخاء الاقتصادي سوف تأخذ وقتاً لتصل إلى الأجزاء البعيدة من الأرض. كما

ليس من المحتمل أن أية من هذه الأجزاء من البلاد التي جاء وصفها في هذه الصفحات لم يحس بعد بأثر الثروة الجديدة بدرجة ملموسة. يقال أن نجران قد تحولت إلى بلدة ذات حجم معتبر، غير أن التغيير الرئيس هناك هو الاختفاء التام للجماعة اليهودية الصغيرة بسبب هجرتها إلى فلسطين. تستعصي الجبال على أي تطور محسوس، بينما، انتفعت جازان والقرى الساحلية الأخرى التي عرفتها في أيام زياراتي، بلا شك من النشاط التجاري المتنامي خلال السنوات الأخيرة.

حدث تغيير عظيم، في حالة واحدة، مقارنة بالماضي. لقد زار العديد من الخبراء تلك الأراضي العذراء التي قمت برفع الحجاب عنها واكتشافها قبل(١٥) سنة فقط، ومعظمهم من الأمريكان -خبراء فنيون- ولكن لا أحد بينهم -حسب علمي- قد قام بنشر أي تقرير عام عن المناطق التي زاروها. لا بد من إضافة اسم جديد، بكونه نجماً ذا شأن، إلى قائمة المساهمين الرئيسين الذين أثرو معارفنا حول جنوب الجزيرة العربية والذين ورد ذكرهم في المقدمة. إنه ولفرد ثَسِيجَر[١] الذي قدم إلى الجزيرة العربية بعد الحرب العالمية الثانية فيما يتعلق بالمشروع العالمي لمكافحة الجراد، وخلال السنوات القليلة التي أخلص فيها العمل للبلاد قبل مغادرتها عام ١٩٥٠م متجهاً إلى مراعٍ أخرى كانت رحلاته الواسعة في الأجزاء الجنوبية للجزيرة العربية، خاصة داخل وحول الربع الخالي، قد جعلته فوق الجميع بين كل الكشافين في مجال استكشاف الجزيرة العربية المشرِّف. يمكن أن نعد النهر

(١) الأستاذ ولفرد ثَسِيجَر:- يعد من عظماء الرحالة البريطانيين في البلاد العربية، ولد في أديس أبابا عام (١٩١٠م)، ثم تعلَم في ايتون واكسفورد، وعمل بعد تخرجه في السودان، والحبشة، وسوريا، ثم في الصحراء الغربية، ومنذ آواخر الحرب العالمية الثانية قام برحلات عديدة إلى أقطار مختلفة، ومنها الجزيرة العربية، حيث قطع الربع الخالي مرتين في الفترة من عام (١٩٤٦م ــ ١٩٤٨م)، كما قام في عام (١٩٤٥م) والذي يليه برحلة عبر تهامة والسراة سماها: ــ (رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز)-، قام بترجمتها إلى العربية الأستاذ الدكتور/ أحمد عمر الزيلعي، ونشرها في **مجلة الدارة**، (العدد الأول) (س/ ١٤) شوال / ١٤٠٨هـ / مايو / ١٩٨٨م، ص٩٣ ــ ١٢٣ (ابن جريس).

الرئيس لاستكشاف الجزيرة العربية قد وصل إلى نهايته عند منتصف القرن العشرين، غير أنه يوجد العديد من الخلجان الصغيرة ومواضع مياه خلفية منعزلة لا تزال تنتظر اهتمام كشافين قادمين.

هاري سانت جون فيلبي

مكة المكرمة: ١٦ سبتمبر ١٩٥١م

مقدمة

يكمل هذا العمل وصفي لجنوب الجزيرة العربية الواقعة إلى الجنوب من الخط الذي يخترق شبه الجزيرة من ميناء العقير على ساحل الخليج العربي، عبر الرياض، عاصمة وسط الجزيرة العربية، إلى مكة وجدة. كان معظم البلاد أسفل هذا الخط، حينما ذهبت إلى جزيرة العرب قبل (٢٧) عاماً[١]. أراضٍ مجهولة، برغم التغلغلات العشوائية إلى أطرافها من قبل بعض الروَّاد المستكشفين الأوائل للجزيرة العربية. لا يوجد اليوم إلاَّ القليل من الجزيرة الذي لا يمكن تحديده على الخرائط بدقة. وأستطيع أن أدعي، دون غرور لا ضرورة لها، إن معظم الخرائط لهذه المساحة الضخمة قمت بعملها بنفسي. شارك آخرون في هذا العمل العظيم خاصة آر. إي. شيزمان، وبرترام توماس، وهارولد انجرامز، وفريا ستارك، وهوج سكوت، وبيري لا ماري، وآخرين. غير أنني شاهدت من الجزيرة العربية أكثر مما شاهده كل هؤلاء مجتمعين، وكل من قد سبقونا، وهو أمر طبيعي باعتبار أنني صرفت أكثر من ربع قرن لدراسة البلاد التي لم يستطع زملائي في المهمة -لحسن الحظ أو سوئه- أن يكرس أكثر من أشهر قليلة، أو على أقصى تقدير، سنوات قليلة. كانت نتائج أعمالي تعرض على الجمهور على فترات خلال هذه المدة الطويلة في سلسلة من المجلدات: "قلب الجزيرة العربية" (١٩٢٢م)، و"الربع الخالي"(١٩٣٣م)، و"بنات سبأ" (١٩٣٩م). وأنه وبإحساس ذاتي بالراحة أقوم بتقديم هذا العمل الحالي إلى العالم كتذكار لانتهاء جزء واحد على الأقل من المهمة التي نذرت نفسي لها منذ سنوات عديدة مضت.

كان هدفي الرئيس في هذا الكتاب، كما في غيره من كتب رحلاتي السابقة، هو أن أدون كل ما أعرفه - ربما أفضل أن أقول كل ما قد عرفته عن طريق

(١) في عام ١٩١٧م. (المؤلف).

ملاحظاتي الشخصية- للمنطقة التي يرد وصفها. كنت أحاول أن أقلل بقدر الإمكان من الفجوات في استكشافاتي وفي سجلاتي لغيري ليقوم بملئها، كما حاولت أن أكون شديد التدقيق في صحة كل ما أقوله عن الأماكن والناس. وبالطبع فنحن نقع في الخطأ من حين لآخر، وقد تكون هنالك أخطاء في هذا الوصف الضخم لبلاد شاسعة الأطراف، والذي من أجله أطلب فقط السماح من أولئك الذين سيكونون على أثري. من أجلهم قد كتبت - لأجل الخبير والمحترف أكثر منه للقارئ العادي- برغم أملي أن يكون هنالك البعض منا في هذه الأيام المزدحمة بالأعمال والذين لا يزال لديهم الفراغ لقراءة ما يكتب عن بلاد غريبة بعيدة وعن تجارب أولئك الذين غامروا بالدخول فيها واستكشاف أسرارها.

سيجدون في هذا العمل سرداً لمساحة كبيرة من الأرض لم تستكشف حتى الآن. تبلغ مساحتها حوالي (١٥٠,٠٠٠) ميل مربع، والتي لم تقع عليها عين أوروبي غيري. إنها تمتد فوق جبهة عريضة إلى مسافة (٣٠٠) ميل من الساحل الشرقي للبحر الأحمر عبر سهل تهامة الساحلي وأعلى الحاجز الجبلي العظيم الذي ترتفع قممه، حوالي (٧٠٠٠) أو (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، إلى أسفل فوق رفوف البازلت والصخر الرملي للهضاب العالية إلى أن تندمج داخل رمال الصحراء العظيمة في جنوب الجزيرة العربية. والتي تمتد عبرها الحدود الدولية بين مملكتين عربيتين حديثتين، المملكة العربية السعودية، واليمن. يتباين الطقس داخل هذه الحدود من شبه استوائي إلى معتدل، وبينما تكون المياه متوافرة على أحد جانبي الحاجز الجبلي، وتكون شحيحة على جانبه الآخر. تحمل معظم الأودية التي تشق الجانب المتجه ناحية البحر أنهاراً دائمة الجريان حتى حافة سهل تهامة، الذي كان يزرع بكثافة في الأزمان الغابرة، ويعزى ذلك لوجود نظام قنوات محكم

أقيم في هذه الأودية. كما يوجد أدلة على قيام أنظمة للري في الأودية الكبيرة على الجانب الشرقي للحاجز الجبلي، الذي اعتمد، على أية حال، على المحافظة العلمية لمياه السيول بدلاً عن سخاء الطبيعة. وكما تتباين المجموعة النباتية والمجموعة الحيوانية في هذه المنطقة، يتباين الطقس والمناظر الطبيعية، بينما يتباين الإنسان نفسه من العناصر الزنجية المنتشرة في السهل الساحلي إلى العربي السامي الأصيل المستقر في المرتفعات وفي الصحراء. يكثر الإنسان في هذا الإقليم مقارنة بأجزاء أخرى من الجزيرة العربية، وكذلك كان منذ أزمان مبكرة حينما كانت البخور العربية تنتشر في أسواق العالم وأعطت لهذه الزاوية الجنوبية من صحراء شبه الجزيرة العربية الاسم المستعار الجميل «العربية السعيدة»[١].

تغيرت الأشياء منذ تلك الأيام، كما سيكتشف أي قارئ لهذه الصفحات ذلك بنفسه. غير أن الأشياء قد تتغير مرة أخرى. لقد نامت الجزيرة العربية وبعمق أكثر من اللازم، غير أنه توجد إرهاصات صحوتها حيث يطل عليها فجر مرحلة جديدة من جهة الغرب. من منا الذي يستطيع أن يعلم ما يخبئه اليوم للجزيرة العربية غداً؟ أو ما الهدايا التي ستقوم بمنحها للإنسانية عوضاً عن توابلها التي طواها النسيان؟ يستطيع هذا العمل أن يدعي بأنه قد عرض الجزيرة العربية كما هي في لحظة تحولها من الانحطاط إلى النهضة. وسوف تعود عظيمة كما كانت أيام أوجها في عصر سبأ.

هاري سانت جون فيلبي

١٨ اكول روود جنوب غرب لندن

٦ مايو ١٩٤٤م

---

(١) (العربية السعيدة) (Arabia Felix) هو الاسم الذي أطلقه الكتّاب الإغريق والرومان على جنوب الجزيرة العربية، وفي أحيان كثيرة كان يقصد به جميع المنطقة الواقعة جنوب الخط الممتد من خليج العقبة وحتى مدينة بابل على نهر الفرات. وقد أطلق هذا الاسم بسبب الشهرة الكبيرة التي اكتسبتها الجزيرة نتيجة تصدير المواد العطريه والتوابل. (ابن جريس).